لم يرغب أحد في وجودي إلى الآن ...

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« هل هناك مأساة أعظم من أن يكون الانسان غير مرغوب في وجوده ؟ هنا قصة مثيرة عن امرأة واجهت هذه المشكلة وما زالت تواجهها إلى أن ... »

* * *

جلست إلى جانب شباك غرفتي الوحيدة التي فيها أنام وفيها أجلس ، في خط رفيع من شعاع الشمس المائلة إلى الغروب ، وقد طرحت على ركبتي قطعة القماش التي كنت أحيكها

ونظرت بعينين كليلتين إلى الجدران العارية القائمة على الجانب الآخر من الطريق ، وهي كل ما يمكن أن تقع عليه العين من شباك غرفتي ونحن الآن في شهر مايو من فصل الربيع وقد تفتحت الزهور وعطر شذاها الجو

وقد مضى عليّ الآن ثلاث سنوات لم تقع عيني في خلالها على زهر الحزامى الجميل ، وهو يستقبل الربيع باسماً جذاباً ، ولا شممت شذى الليلق المنعش للصدور . مضى ثلاث سنوات على اليوم الذي مات فيه زوجي جون ، فاضطرني موته لأن أعيش متنقلة بين بيوت أبنائي ثلاث سنوات طويلة جوفاء قضيتها وحيدة في عزلة عن الناس !

جلست إلى جانب الشباك تعبث أصابعي الخشنة المشوهة من عمل السنوات المديدة ، بقطعة الصوف الزرقاء المطروحة على ركبتي وقد بلغت في ذلك اليوم السادسة والسبعين من عمري فاليوم هو عيد ميلادي ولكن أحداً لم يذكر ذلك ولم يشعر به ، لا ابني هاري الذي أعيش الآن معه ولا امرأته الينور الذكية الجميلة ولا ولداها.

قضيت اليوم كله أداعب أملاً حيياً حزيناً في أن يتذكر أحدهم فيحضر إليّ ويقبلني ويقول لي : « عيد سعيد يا عزيزتي ! » . ولكن لم يكن هذا الأمل إلا حماقة ، فقد كانوا جميعاً مشغولين بشئونهم الخاصة . لذلك نسيني هاري والينور وحفيداي ، وكذلك نسيني أبنائي الآخرون : توم وهو بحار في برمنجام ، وآلان الطبيب في نورثامبتون وجورج الذي كان يحرر جريدة في مدلاندز ، وجين التي تعيش في لندن وتكتب لإحدى المجلات النسائية مقالات تتقاضى عليها أجوراً عالية وقد قضيت عندها جزءاً من شتاء العام الماضي

ولكن لا بأس ! فأنا امرأة شيخة وأبنائي جميعاً جد مشغولين ولهم من نجاحهم في الحياة ما يلهيهم عن الاهتمام بأم عجوز مثلي . ولم يعرفوا بعد الشقاء الذي يشعر به الإنسان عند ما يشيخ ويرى الحياة تمر به مندفعة وتتركه وراءها . إنهم لا ينتظر منهم أن يدركوا ما في الشيخوخة من قسوة ووحدة . يا لهول ما في الشيخوخة من وحشة وخوف !

لقد كان كل شيء قبل ثلاث سنوات ، مخالفاً فيما يتصل بحياتي لما هو كائن اليوم ، إذ كان زوجي جون لا يزال على قيد الحياة فلم أكن أبالي بالشيخوخة

تنزل بي وهو إلى جانبي . لقد كان حبه وقربه مني يملآن نفسي شجاعة ويحيطان حياتي بالهدوء والسعادة والآن قد ترك جون هذا العالم وتركني وحيدة تكتنفني الحيرة والخوف في عالم هو في عيني شديد الاتساع والحداثة وسرعة الحركة

ولقد عزاني عما أنا فيه أن جون لا يستطيع أن يعلم الحقيقة ، فلقد كان واثقاً من أنني سأكون هنية وفي خير بعد ذهابه . لقد قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

— سيعنى بك الأولاد يا مارى ولن تكوني وحيدة ياعزيزتي ، سيحبك أبناؤنا ويرفهون حياتك

نعم ، فبعد أن انتهى كل شيء وبعد أن رأيت جون يوضع في مقره الأبدي بمقبرة البلدة الصغيرة أخذني أبنائي معهم . فأقمت أول الأمر مع آلان ثم مع توم ، وبعد توم أخذتني جين فقضيت معها فترة من الزمن وأنا الآن مقيمة مع هاري . لقد أدى الجميع واجبهم ، ولكن يبدو لي على صورة ما أنهم أصبحوا لا يشبهون أبنائي الذين من لحمي ودمي . فهم يعاملونني كأنني غريبة في بيوتهم ، غريبة لا تتصل بهم ولكن يجب أن يتحملوا عبئها

لقد أزعجني ذلك وشعرت في أعماق قلبي بشيء صغير جازع يصيح بهم طالباً الحب والراحة والتفاهم ويرجوهم أن يقتطعوا من حياتهم المملوءة حركة فترة وجيزة يقولون لي فيها إنهم لا يزالون يحبونني ويحتاجون إلي ويرغبون في وجودي إلى جانبهم ، كما أحبوني واحتاجوا إلي ورغبوا في وجودي عند ما كانوا أطفالاً

ولكني لم أنطق قط بهذه الصيحة الدفينة ، فقد علمتني هذه السنوات الثلاث ألا أقول شيئاً وأن أبتعد عن طريقهم . لقد كان لهم من مشاغلهم وضيق وقتهم وشدة ملهم ما يحملني بعاطفة الأمومة على أن ألتمس لهم في أعماق قلبي العذر من عدم إقبالهم علي

كانوا يتبرمون بطراز ملابسي ، كانوا يكرهون القماش المطبوع الذي أخيط منه الملابس ، والثوب الأبيض الذي كنت ألبسه فوق ثوبي . فابتاعوا لي رداء من الحرير الأسود ليسته إرضاء لهم ، ولكني كنت أشعر أنني فيه غريبة غير مرتاحة ، أشعر بالوحشة إلى جلابيبي القطنية القديمة الطراز

كذلك كانوا يتبرمون بأسئلتي إذا خطر لي أن أسألهم سؤالاً ما ، ولقد سمعت لندا امرأة «آلان» تقول في كثير من الضجر :

— إن أمنا متعبة تشبه الأطفال في أسئلتها

ذكرت هذا كله في جلستي هذه فسرى الجزع إلى نفسي

وذكرت أن جين انتهرتني مرة إذ قلت غاضبة :

— إنك تثيرين أعصابي يا أمي بكثرة كلامك على أمور قد مضت . ألا يمكن أن تفهم ابنتي أن الماضي هو كل ما أملك في الحياة ؟ لقد سرت نظرة التأذي على وجهي عند سماع هذه الكلمات وامتلأت عيناي الكليلتان بالدموع البغيضة ولكن جين لم تلحظ شيئاً من ذلك

لقد تبين لي الآن أني كنت دائماً عقبة في طريقهم ، كما حاولت المساعدة في بعض الأعمال المنزلية ، وما كنت أقصد بذلك إلا أن أجعل لنفسي بينهم فائدة وأن أملأ فراغ ساعات أيامي الطويلة

الفارغة . كنت أود أن أذهب إلى المطبخ فأسوى من حين إلى حين بعض الفطائر ، كما كنت أحب أن أصلح ملابسي أحفادي أو أنظف غرفة الجلوس

ولكني لم أكد أقدم على عمل من هذه الأعمال لأول مرة حتى عبست الينور وقالت وهي تلوي رأسها :

— إني أفضل أن تترك ذلك الخادم

وطلبت مني لندا ألا أتدخل في شؤون بيتها قائلة في صراحة :

— إنه (بيتي) كما تعلمين وأنا أفضل أن أرتبه على الطريق التي أراها

وشعرت من جراء عدة أمور صغيرة كهذه أنني قد جرحت وأنني لم أكن في بيوت أبنائي إلا غريبة طفيلية . وهكذا تعلمت أن أكتف ساعدي وأن ألزم غرفتي وإن كنت أشعر فيها بالوحدة والفراغ

وحدث مرة في بيت آلان ولندا أن كان هناك بعض الضيوف لتناول الشاي ، فلبست ردائي الجديد الأسود ، وجعدت شعري الأبيض الرفيع ، وشبكت بنيفتي بدبوس رأسه من حجر الأمايست كان زوجي جون أهدانيه في الذكرى الثانية لزواجنا ، ثم نظرت إلى المرآة نظرة الناقد الأري إن كان في منظري ما يدعو إلى النفور ، ومررت بلطف بكفي على ردائي وعلى شعري ، ثم هبطت السلم إلى غرفة الاستقبال حيث كان الضيوف جلوساً ، على أنني عند ما وصلت إلى الباب وقفت لحظة مترددة

وأحسست في وقفتي بارتجاف يدي من التأثر العصبي كما أحسست بقلبي ينبض بشدة . ترى أكان في منظري ما يدعو إلى الاشمئزاز ؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال غير مطمئنة إلى الجواب ! وسألت نفسي أيضاً : ترى ترحب لندا بقدومي ؟ وهل تبتسم عند ما أقبل عليها وتقدمني لضيوفها ؟ من يدري ، ولعلها أيضاً تسمح لي بمساعدتها في تقديم الشاي والفطائر الصغيرة . لقد كنت أرجو من أعماق قلبي المهجور أن تسمح لي بأن أجالس المدعوين

فتحت الباب في استحياء ودخلت ، فتلفتت لندا وإذ رأتني قطبت جبينها علامة عدم الارتياح لوجودي . ثم قالت في جفاء :

— لقد حسبتك ستبقين في غرفتك

فأجبت :

— لقد أتيت لقضاء فترة وجيزة يا لندا

وكانت عيناي وأنا أتكلم تتوسلان إليها في أن تسمح لي بالبقاء وأن تشفق علي

فتنهدت لندا تنهد القهور وأشارت إلى كرسي في ركن بعيد من أركان الغرفة فجلست عليه في هدوء وأخبأت يدي المرتجفتين في حجري حتى لا يلاحظ الضيوف اضطرابي .

وتكلم النسوة في أمور لا أعلم من أمرها شيئاً وتجاهلن محاولاتي المتواضعة التي كانت تنم عن رغبتي في الاشتراك في الحديث ، فشعرت بأنني قد زجرت وأنني وحيدة لا موضع لي في ذلك المكان . لذلك وقفت في الحال ، وتركت الغرفة في سكون ، مقفلة ورائي الباب في بطء ، ثم تسربت إلى غرفتي فنزعت ثوبي الأسود ، وفككت دبوس الأمايست ، وبقيت فترة طويلة ممسكة هذه الهدية الزوجية العزيزة في يدي النحيلة المرتجفة ، بينما سالت الدموع على وجنتي المجعدتين .

ولم ألبث أن قلت لنفسي :

— إنى لشيخة حمقاء إذ أبكى .

لم يبق من أثر لأشعة الشمس حيث جلست على الكرسى الواطى فى غرفتى ، ولم تلبث عتمة الغسق أن ملأت الجو ، على أننى ما زلت جالسة فى مكانى مطبقة جفنى مطلقة لفكرى العنان يسبح فى ذكريات الماضى السعيد الغامض .

عاد الخيال إلى مزرعتنا الصغيرة فى كورنيش ، تلك المزرعة التى لا تنفك عواطفى تحن إليها كلما شعرت بالفراغ الذى يكتنفنى وسط المدينة الآهلة فارتسمت أمام عينى صورة العريشة والحقول والبيت الأبيض الخشن المنظر الذى ولد فيه أبنائى الخمسة وشبوا ، ورأيت غرفة النوم الكبيرة وقد بهت ورق جدرانها ورأيت السرير الخشبى الكبير المزخرف الذى كنت أعانى عليه آلام الوضع كلما أخرجت أحد هؤلاء إلى عالم الوجود .

رأيت نفسى بعين الماضى شابة صغيرة رشيقة سريعة الحركة لا عجوزا بطيئة كما أنا الآن ، ورأيتنى متنقلة فى خفة من مكان إلى مكان أنجز عمل البيت وأربى الصغار . رأيتنى أغسل الملابس والآنية ، منحنية على الوجاء متعبة شاحبة ، مشتغلة فى الحديقة فى أشعة شمس الصيف الحارة ، ممدة نار الشتاء بيدين خشنهما وشققهما الصقيع ، معنية بتغذية الأطفال وتنظيفهم وتنشئتهم على الصدق ومعرفة الحقائق ، مجتهدة فى إفهامهم معنى الشرف والصبر والكرم ، ولا أذكر أننى أهملت فى ناحية من هذه النواحى ، وإنى لأسمعهم الآن كما كنت أسمعهم أطفالا يرتلون صلاتهم كل مساء .

إنى لأذكر كيف كنت أنا وجون نقتصد ونقتر على نفسينا لنستطيع أن نبتاع للأطفال أحذية جديدة ولنسدد لهم نفقات التعليم فى المدارس ، ولتمكنهم من أداء مدة التمرين للمهن التى أعدتهم لها دراساتهم

وإنى لأسمع جون وهو يكرر قوله :

— إن أبناءنا هؤلاء ياماري ليستحقون كل هذا العناء والتعب فسيأتى يوم نفخر بهم فيه ، وسيكونون مبعث رفاهتنا فى شيخوختنا .

ولقد صدقت زوجى حينذاك ، وتطلعت إلى الزمن الذى يصبح فيه أبنائى رجالا ونساء ناجحين فى الحياة يؤلفون بيوتا هنية سعيدة نزورها أنا وجون ، فنجد فيها أحفادا لنا أعزهم وأدلهم وأهز مراجيحهم لأنيمهم

مرت بى هذه الذكريات وأنا جالسة فى مكانى ساعة الغسق فابتسمت ، فإن أبناءنا لم يدعونى وأباهم لزيارتهم إلا نادرا ، وبعد أن غادرونا الواحد بعد الآخر بقينا نحن الاثنين فى مزرعتنا زوجين شيخين وحيدين منسيين

أما الأحفاد ، فقد كانوا فى الحق أطفالا من الطراز الحديث فلم يسمح لى بأن أدلهم أو أهزهم ، بل إننى حتى لم أر قط « آن » ابنة جورج ، فقد كانت فى المدرسة التى ألحقها بها أبوها فى سويسرا ، عندما مات جون ، ولم تحضر جنازة جدها

نظرت إلى يدى الجافتين المشوهتين المبسوطتين على ركبتى ، وذكرت كيف كانت هاتان اليدان تتسابقان فى مرود فى سبيل العناية بالأطفال ، فأصبحتا الآن عديمتى الفائدة شيختين مشوهتين لا يرغب فيهما أحد

وبينما أنا غارقة فى هذه الأحلام إذا صوت إلينور الحاد يخترق غشاء رأسى ويقطع على أحلامى ، متسربا إلى باب غرفتى نصف المفتوح ، كانت مقبلة من غرفتها ، وكان كعبا حذائها العاليان يقرعان الأرض بشدة تبعث فى الجو صدى عاليا ، يسير هارى إلى جانبها فى خطوات بطيئة ثقيلة ... سمعتها تقول له :

— أقول لك إن صبرى قد فرغ يا هارى ! ويجب أن تبعدها عن هذا البيت ، إنها تتدخل لحد بعيد فى ترتيباتى الاجتماعية

سماءلت نفسى متحيرة : ترى من هى التى تريد إلينور إبعادها عن هذا البيت ؟ أهى الخادم الجديدة أم لعلها الطاهية ؟

ثم سمعت صوت هارى بطيئاً تبدو فيه الحيرة وهو يقول :

— ولكنها أمى يا إلينور ، صحيح أنها عجوز كالأطفال ومتعبة قليلاً ، وأنا أيضاً لا أحب بقاءها هنا ولكن ماذا أستطيع أن أعمل ؟

فقالت إلينور فى حدة :

— يجب أن تعمل شيئاً ، ويحسن أن ترسلها إلى جورج ، فإنه لم يتحمل قط نصيبه من هذا العبء وليس يهمنى أين ترسلها ولكن يجب أن تبعدها عن هنا فى أسرع وقت

سمعت صوت إقفال باب غرفتهما وجلست فى الظلام مصعوقة لا أستطيع حراكاً

لقد كنت أنا التى يدور الحديث حولى ! أنا التى يراد إبعادها عن البيت ! أنا « العجوز كالأطفال المتعبة قليلاً » كما قال هارى

وفى هذا اليوم يوم ذكرى ميلادى هيأت لى الحماقة أنهم سيحضرون إلىّ مهنئين معبرين عن حبهم لى وعطفهم علىّ ! !

أحنيت رأسى فى بطء وأطبقت جفنى

وفى صباح اليوم التالى بكرت فى الهبوط إلى الطابق الأول لأستطيع الاجتماع بهارى وحده ، فلما وجدته فى غرفة الطعام ابتسمت ابتسامة مرتجفة وقد جهدت فى تملك أعصابى والتزود بالشجاعة ، وقلت وقد بدا فى صوتى الرفيع أثر الاضطراب على الرغم منى :

— لقد كنت أفكر فى أمرى يا بنى وقد وجدت أن بى حاجة إلى تغيير الهواء ، وإننى لأحب أن أبقى هنا معك أنت وإلينور ، ولكنى أرى أن أسافر الآن إلى جورج ، فهل لك أن تكتب إليه لتخبره بأننى ذاهبة إليه فى الحال ؟

لم يكد هارى يسمع هذه الكلمات حتى بدا أثر الارتياح على وجهه ! فوخز ذلك نفسى ، وآلمنى أن أرى ابنى أيضاً مسروراً للتخلص منى !

فرد جورج فى شىء من التذمر يقول إنه مستعد لاستقبالى إذا كان من الضرورى أن أذهب . فأجابته إلينور برسالة تلغرافية إن ذلك من الضرورى جداً . وهكذا أعددت حقيبتى العتيقة وأركبنى هارى القطار وقبلنى قبلة وداع عاجلة معتذراً بأنه مضطر أن يسرع فى الذهاب لارتباطه بموعد هام يتصل بأعماله ؛ على أننى لم أكد أشعر بما فى عمله من إهمال لشأنى ، لأنى بعد أن علمت أن ليس بين أبنائى من يرغب فى وجودى لم يبق ما هو أشد من ذلك إيلاماً لنفسى ،

فقد أصبح قلبي كسيراً يدمى كما يدمى كل قلب عجوز كسير ...

كان كل ما أملكه هو أن أحاول الترفيه عن نفسي بأن جورج يعيش في بلدة صغيرة على مقربة من المزرعة التي أحبتها وتعودت حياتها وفي ذلك بعض العزاء . غير أنني كنت أضطرب كلما ذكرت أنني ذاهبة إليه غير مرغوب في وجودي

نزلت من القطار فوقفت على إفريز المحطة دائخة متعبة من الرحلة غريبة بين الناس حائرة فيما أفعل

ثم سمعت ورأيت خطوات تجري مسرعة ؛ وشعرت بيد تمسك بساعدي في لطف وسمعت صوتاً يقول :

— هل أنت جدتي ؟

فالتفت فرأيت أمامي فتاة طويلة رشيقة بنية الشعر مرسلته لها عينان واسعتان صافيتان ، تبدو على فمها العذوبة والرزانة . فقلت :

— نعم أظن أنني لا بد أن أكون جدتك

فطوقتني بساعديها الفتيتين القويتين وقبلتني قبلة حارة ، هي أول قبلة حقيقية تمتعت بها منذ ثلاث سنوات . وقالت :

— أنا « آن »

وقادتني حفيدتي إلى سيارتها الصغيرة الزرقاء فساعدتني في الصعود إليها ، حتى إذا أدارت المحرك ابتسمت لي وقالت :

— حقاً إنني لسعيدة يا جدتي بقدومك !

وقعت هذه الكلمات من نفسي موقع الغذاء من نفس الكلب الجائع ، وكالكلب الجائع اختطفت هذه الكلمات متلهفة . لقد وجدت أخيراً من يسعد بوجودي إلى جانبه ! وجدت من يرى أنه محتاج إليّ لقد كان ذلك معجزة ! كان إجابة لصلواتي ودعائي .

فأطبقت عيني المتعبتين لأخفي الدموع التي غمرتهما فجأة ، والإنسان إذا كبر كانت دموع الفرح أسرع إلى عينيه من دموع الألم والبكاء

وكانت « روث » امرأة جورج تنتظرني في البيت ، ولم أكن قد رأيتها غير بضع مرات منذ زواجها من ابني ، وأذكر أنها كبيرة الجسم شقراء معتدة بنفسها زرقاء العينين قاسيتهما مرتفعة الصوت . ولقد رأيتها الآن قد تغيرت قليلاً ، إذ أصبحت أقل نشاطاً مما كانت وأشد تحكماً ، ولكن صوتها كان كما عهدته مرتفعاً ، وكذلك كانت عيناها على عهدي بهما قاسيتين

رحبت بي امرأة ابني في فتور وقبلتني قبلة باردة وإني لأظن أن « روث من هؤلاء النسوة اللواتي يحسبن أن الشيوخ من الآدميين كالخيل التي أتلفها العمل الشاق يجب قتلها متى أصبحت عديمة النفع »

نظرت إلى « آن » نظرة تفيض بالجزع والرعب ، فابتسمت لي ابتسامة تبعث الاطمئنان إلى النفس الحائرة وقالت :

— لقد غادر أبي البلدة اليوم لحضور اجتماع سياسي ، وسيعود إلى هنا صباح الغد ، فهلمي إلى غرفتك المجاورة لغرفتي ، وسأنك لك حقيبتك لأني أعلم أنك متعبة يا جدتي

ثم تأبطت ساعدي ومضت بي

وشعرت وأنا أصعد معها السلم متباطئة بعاطفة الشكر تغمرني وقلت في نفسي : « مهما حدث الآن

فلبثى صاحبه « آن » إلى جانبى »

لقد صدق ما توقعته ، فنى الأشهر التى تلت ذلك اليوم ، كانت « آن » هى المستمدة دائماً للدفاع عنى فى حماسة وغيرة ، وهى التي كانت تغمر أيامى بضوء الشمس وبالسعادة ... كانت تجيب على أسئلتى المتواضعة وتحدثنى بأخبار أصدقائها وما تهتم به من الشئون ... كانت تعرض على مسائلها طالبة لنصيحتى، كانت تعاملنى على أننى إنسانة حية ، لا على أنى عبء ثقيل عديم الفائدة ، فكنت أقابل هذه المعاملة بأرق ما أستطيع من مظاهر الشكر وعرفان الجميل

ولولا « آن » لكانت حياتى فى بيت جورج كئيبة موحشة كما كانت فى بيوت أبنائى الآخرين . ولم يكن فى تصرفات جورج ما يدل صراحة على عدم شفقته ، وكل ما هنالك أنه لم يكن ليهتم بى على نوع ما . فقد كان كل همه محصوراً فى الصحافة والسياسة

وكان اهتمام « روث » منصرفاً إلى عملها الاجتماعى وإلى تدبير زيجة طيبة « لآن » ، ولم ألبث أن أدركت أن «روث» إنما قصدت «بالزيجة الطيبة» أن تتزوج « آن » من ستيوارت با كستون ابن أحد مديرى البنوك

وكنت قد التقيت بهذا الفتى على أثر وصولى إلى بيت جورج . وإذ كنت تعودت ملاحظة وجوه الناس منذ خمسين سنة وأكسبتنى التجربة صدق الحكم على أخلاقهم الكامنة وراء مظاهرهم ، فقد دققت فى وجه ذلك الفتى القصير النحيل ثقيل الحركة التى رأت فيه « روث » الزوج الصالح لابنتها ، نظرت إلى عينيه الصغيرتين الزرقاوين الماكرتين ، وإلى فمه الرقيق الضعيف الذى يدل على القسوة فلم أحبب ما رأيت ، لقد كان وجهه مجرداً من أمارات القوة والشفقة وكرم النفس ، وهذا هو الرجل الذى تخيرته « روث » ليكون زوجاً لابنتها !

شعرت عند ما رأيت هذا الفتى برعشة الخوف تسرى فى نفسى ، ورجوت ألا تكون « آن » قد أحبته ، فقد كنت أشفق عليها من ذلك الحب لعلمى بأن الشباب متلهف إلى الخيال تعميه فى سهولة الهالة التى تحيط بالثروة والمركز العالى

ثم قابلت « كن ادامز » فلم تلبث أن تلاشت جميع مخاوفى فيما يتصل باستيوارت با كستون وعلاقته « بآن » ، ففى مساء يوم من أيام شهر يونية بينما كنت جالسة فى الحديقة أقبلت « آن » ومعها فتى طويل القامة قدمته لى بقولها :

— هذا هو « كن » يا جدتى

قالت هذه الجملة فى صوت متهدج ، فنظرت إلى الفتى نظرة حادة عند ما تناول يدى المجعدة وانحنى عليها مقبلاً

كان « كن » ذا عينين واسعتين رماديتين ضاحكتين ، فى وجهه الأسمر بساطة ، شعره أسود سميك ، فمه واسع سار . ابتسامته شىء ذكرنى بزوجى جون وقد أحببته حباً شديداً لأول مرة وقع نظرى عليه . وكان رداؤه قديماً رثاً وكان هو نحيل الجسم ، وعلى الرغم من ذلك قلت فى نفسى : « هذا هو الرجل الذى يليق بآن » ولكن هذا إذا أمكن أن تحبه الفتاة

ثم رأيت « آن » تنظر إلى « كن » نظرات ملتهبة ، ورأيتها تبتسم له ابتسامة حبية مضطربة ، فعلمت كما لو كانت هي التي خبرتني بأنها تحبه من أعماق قلبها حباً يدوم إلى الأبد

ولكن الأمر عند أم « آن » كان على العكس من ذلك ، فقد كانت تبغض « كن أدامز » بغضاً قتالاً لا يرتكز على سبب معقول . فقد قالت لي مرة في لهجة غاضبة :

— إنه رجل أفاق لن يصلح لها بحال ، فإنه لا يحصل حتى على مرتب محترم ! والحق أنني لا أدري أي شيء فيه يعجب « آن » !

فنظرت إلى « روث » في دهشة ، فقد أعلم جيد العلم ما الذي يعجب « آن » من « كن » فقد أعجب بمثله من زوجي جون ، فيه الطيبة والبهجة والقوة والشرف والرقة في معاملة المرأة التي يحبها ، وهذه هي الخلال التي تحمل الفتاة على أن تعمل وتتحمل المتاعب من أجل رجلها وتشعر في الوقت نفسه بأنها تلقى الجزاء الذي يعوض عليها المشقة والتعب .

لن تكون لـ « كن » يوماً ما مثل ثروة « ستيوارت باكستون » ولكن الحياة مع « كن » ستكون أغنى من نواح أخرى ، نواح عظيمة هامة كالضحك والحب والسلام والمؤانسة

ولكن « روث » لا تستطيع أن تفهم ذلك ، فقد كانت معتمة على أن تتزوج « آن » المال والثروة ومعنى ذلك أن تتزوج من ستيوارت باكستون . فلم تسمح لـ « كن » بوضع قدمه في البيت وأمنعت « آن » من مقابلته في أي مكان آخر . وكان ستيوارت باكستون يزور البيت كل ليلة على التقريب وكان الجميع ، ما عداي و« آن » يقابلونه بالترحيب القلبي الحار

وفي مساء يوم من الأيام خرجت لأبتاع بعض الحاجات فلقيني « كن » في الطريق ، فرأيته قد ازداد نحولاً وشحوباً عما كان من قبل ، وقد استوقفني إذ رآني وقال :

— خبريني يا مسز مارتن ماذا عسانا نستطيع أن نفعل « آن » وأنا ؟ إنني أحبها حباً شديداً وأبواها لا يسمحان لي بأن أراها . وإني لأعلم أنني غير كفء لها لأنني رجل فقير ، ولكن سيأتي يوم أؤلف فيه كتاباً يعود عليّ بالربح ، وعندئذ أستطيع أن أقدم لها كل ما تحتاج إليه ، وإلى أن يجيء هذا اليوم أعطيها كل ما في نفسي من الحب

فابتسمت لما في حديثه المتحمس من لهجة جادة وقلت :

— إني أظن أن حبك كاف « لآن » فلا تفقد الأمل يا « كن » فسينتهي الأمر نهاية طيبة على وجه من الوجوه

واجتهدت أن أساعد « آن » بتنبيهي « روث » إلى عدم ارتكاز بغضها « كن » على أساس معقول ، ولكنني بذلك قد زدت الأمر سوءاً . فقد أجابتني في جفاء :

— أرجو أن تهتمي بشؤونك الخاصة ، وكفي تدخلاً في شؤون « آن » فإن ما تسببه لي من المتاعب كاف بدون تدخلك

وسمعت روث بعد ذلك تتحدث مع جورج فى سريرى فتقول فى لهجة الغضب :

— إذا كنت لا تريد أن تتزوج ابنتك من هذا الأفاق المفلس فيجب أن ترسل هذه العجوز إلى أحد إخوتك ، فإننى لا أريد بقاءها فى بيتى !

وفى هذه الليلة نفسها نشأ بينها وبين « آن » شجار عنيف ، حتى إذا انتهى تسللت « آن » إلى غرفتى ، وكان جسمها يضطرب لشدة انفعالها ، وكانت تبكى بكاء شديداً وركعت فى الظلام إلى جانب سريرى فوضعت يدى فى لطف على شعرها الأحمر المجعد ، وقد قالت لى هامسة :

— ماذا أعمل ياجدتى ؟ إنهم لا يريدون أن أرى « كن » وأنا أحبه حباً شديداً ! وسيرغمنى أمى وأبى على الزواج من ستيوارت ، ويقولان الآن إنك سترحلين من هذا البيت ؟

فربت على وجنتها المبللة بالدموع وقلت :

— إسمعى ياعزيزتى ! قد أكون مضطرة لمغادرة هذا البيت إذا هما طلبا ذلك منى ، ولكنهما لا يستطيعان أن يرغماك على الزواج من إنسان لا تحبينه .

— سيفعلان ! نعم أعرف أنهما سيفعلان ذلك ! إنك لا تعرفين كيف يتصرفان إذا هما اتفقا على أمر ، وتشبثا به فإن أمى ستجعل حياتى كلها شقاء إلى أن أتزوج من ستيوارت ، ولكننى أبغضه .

فنظرت إلى خط من ضوء القمر على نهاية سريرى ، ثم قلت فى تأن :

— إننى عند ما كنت فى مثل سنك يا « آن » أحببت شاباً كما تحبين أنت « كن » فهربت معه ، وتزوجت منه بعيداً عن أهلى ، ولم أندم على ذلك قط . لقد كنا فقيرين ، كما ستكونان أنت و« كن » فى أول الأمر ، ولكنا كنا سعيدين . إنكما صغيران وفى نفسيكما شجاعة ، ويحب أحدكما الآخر ، فلا تسمحا لأى شىء بأن يحطم حبكما .

فرفعت الفتاة رأسها ، ورأيت الدموع تنحدر على وجنتيها ، وقد بدا فى عينيها بريق لطيف ، وقالت هامسة :

— شكراً لك يا جدتى ، فإنى الآن أعرف ما يجب أن أفعل ، وسأهرب الليلة مع « كن » فبارك كينا ياعزيزتى .

فضممتها إلى صدرى وقبلتها ، ثم تناولت مفتاحا من فوق مائدة إلى جوارى ، وكنت قد وضعته عليها استعداداً لما توقعت أن سيكون ، ثم وضعته فى يدها وقلت :

— هذا مفتاح بيتنا القديم فى المزرعة ، والمزرعة فى كورنوول على مسافة خمسة أميال من ليسكيرد ، وستجدينها على خريطة الطريق ، والدار لا يسكنها الآن أحد ، فتستطيعان أن تقصداها وتعيشا فيها إلى أن يجد « كن » ما هو خير منها ، وعلى الأقل إلى أن يؤلف الكتب التى ستجعل منه رجلاً ذائع الصيت .

وهنا ابتسمت لنفسى فى الظلام ثم أتممت حديثى فى رقة :

— وليبارك الله لكما ياعزيزتى

ثم همت من فراشى فلبست ردائى الصوف ، وتسللت أنا وآن إلى الممر الخارجى ، ثم مررنا متلصصين فى الظلام بباب الغرفة التى يرقد فيها جورج وروث ، وهبطنا بعد ذلك السلم إلى ردهة الطابق

الأرضى حيث آلة التليفون ، فأضاءت « آن » مصباحاً كهربائياً فى الجدار

وبينما وقفت عند قاعدة السلم أرقب وأنصت لأية حركة تبدو أدارت آن رقم تليفون « كن » ، وفى هذه اللحظة سمعنا صوت تشقق لوح من الخشب فوق رأسينا ، فنظرت كل منا إلى الأخرى جاحظتين فماذا نفعل إذا كان جورج أو روث قد سمع حركتنا وجاء يستطلع الخبر ؟! ومضت لحظة سكون مخيفة ثم إذا كل شىء فى البيت نائم فى هدوء

وفجأة جمعت آن نفسها على آلة التليفون التى حملتها فى يدها وسمعتها تقول مستفهمة فى صوت خافت :

— « كن » ؟ أنا « آن » أريد أن أقول لك إنك كنت على حق حين قلت إننا يجب أن نهرب ، وسنهرب الليلة ونتزوج أسرع ما يمكن ! نعم سنهرب فى اللحظة التى تصل فيها إلىّ . . . نعم ! نعم ! أنا أقصد ما أقول !.. إنى أحبك يا عزيزى !

وإنى لأستطيع أن أتصور النشوة والجذل اللذين غمرا « كن » عند سماع هذه الكلمات

وأعادت « آن » سماعة التليفون مكانها فى هدوء ، وعانقتنى بكل ما فيها من قوة ، وكانت عيناها تبرقان من شدة الانفعال ، وقالت :

— شبكى أصابعك من أجلنا يا جدتى إلى أن نبتعد عن هذا المكان

وعدنا فصعدنا السلم متلصصين ، وساعدت « آن » فى سرعة صامتة فى إعداد حقيبتها ، ثم حملنا الحقيبة إلى الطابق الأرضى ، وفتحت « آن » زجاج الباب بأصابع مرتجفة ، ولم تكد تخطو إلى العتبة حتى وثب « كن » فعانقها فى شدة كأنه يخشى أن تفلت من بين يديه وهو لن يسمح بذلك أبداً

وابتسمت وأنا واقفة فى ضوء الردهة الضئيل متذكرة الماضى — لقد كان ساعدا جون فيتين قويتين كساعدى « كن » وكان قلبى ينبض شوقاً وعيناى تشعان ببريق الأحلام السعيدة شأن عينى « آن » فى هذه الساعة

وقبلانى قبلة الوداع ثم جريا ممسكا أحدهما بيد الآخر إلى حيث كانت سيارة « كن » العتيقة فى الانتظار عند الباب الخارجى

وأقفلت الباب وأوصدت زجاجه ، وأطفأت مصباح الردهة الضئيل ، ثم تسللت فى هدوء إلى غرفتى ، ولم ألبث أن نمت نوماً عميقاً هادئاً ، وأنا لا أزال أشعر بعذوبة قبلة آن على وجنتى المجعدة العجوز ، عالمة بأن هذين الصغيرين يسرعان فى الظلام فى طريق الحرية ، ولم أعد أبالى بما قد يصيبنى بعد أن مهدت « لآن » الطريق إلى السعادة

وبعد أيام قليلة تسلمت تلغرافاً جاء فيه :

— لقد تزوجنا ونحن سعيدان ونحب المزرعة والحياة فيها ، شكراً لك يا جدتى وتقبلى حبنا

وكانت الرسالة موقعة فى كبرياء باسمى « آن وكن آدامز »

وعندئذ هبت الزوبعة ، فهدت روث هديانا جنونيا ونطق جورج بعبارات شديدة لا تقبل الغفران . وجعلنى كلاهما مسئولة هرب « آن » وزواجها وقالا إنهما لن يغفرا لى ذلك أبداً ، وقد نغصا علىّ حياتى فى الأسابيع القليلة التى تلت ذلك الحادث ، رافضين أن يبادلانى الحديث إلا إذا دعت

ذلك ضرورة ملحة ، فأشعرانى بذلك أننى ازددت من أى وقت مضى بأننى غريبة فى بيوت أبنائى

وكتبت آخر الأمر خطاباً إلى ابنتى جين أسألها فيه فى تواضع إذا كنت أستطيع أن أزورها ، فأجابتنى بأنه يستحيل عليها أن تقبلنى فى دارها قبل انتهاء فصل الصيف

وكانت خطابات « آن » هى الشعاع الوحيد الذى يضىء ظلام حياتى . حتى إذا جاء شهر أغسطس تلقيت منها خطاباً تقول فيه :

« إحزمى حقيبتك يا عزيزتى واحضرى إلى المزرعة . إننا هنا سعيدان كل السعادة ونشعر بالحاجة الشديدة إلى وجودك معنا . فكل بيت يحتاج إلى جدة ترعاه ! و« كن » يشتغل بالفلاحة فى النهار وفى الليل ينكب على تأليف كتبه . وهو راغب أشد الرغبة فى حضورك . ويمكنك أن تخبرى بقية العائلة أن ليس بأحد منهم من حاجة فى إيوائك فأنت لنا دون غيرنا ! لقد مهدت طريق السعادة « لكن » ولى فنحن نحبك من أعماق قلبينا »

قرأت هذه الكلمات العذبة من خلال الدموع التى ملأت عينى ، ففاض قلبى بشعور عظيم من الراحة والرضا . فقد أيقنت أن الحياة لن تكون بعد اليوم حرباً على ، فقد وجدت من يحبنى ويحتاج إلى وجودى معه ، وقد أصبحت ملكاً لأناس يحبونى . إننى لن أكون وحيدة بعد اليوم وستصبح الحياة عذبة سعيدة

وفى ساعة مبكرة من الصباح قبل بضعة أيام من الموعد الذى حددته للسفر إلى المزرعة تكلم « كن » معى تليفونيًا ، وكان صوته يهز انفعالاً ،

وقد قال فى لهجة منفعلة :

— لقد وجدنا معدن الصفيح فى الحقل الجنوبى . وجدنا معدن الصفيح ، فهل تفهمين معنى ذلك ؟ ستصبحين غنية يا جدتى ! فاحضرى فى الحال

تركت سماعة التليفون فوجدتنى أنا أيضاً أضطرب انفعالاً ، وحضر جورج وروث إلى الردهة ونظرا إلى محلقين وتساءلا :

— ماذا هناك ؟

فأجبت :

— لقد أخبرنى « كن » الآن أنهم قد وجدوا معدن الصفيح فى المزرعة

فنظر جورج مبهوتاً وقال :

— الصفيح ! . . . مرحى مرحى يا أمى إنك ستصبحين غنية

واندفعت « روث » نحوى فطوقتنى بساعديها وصاحت :

— يا للعجب ! لا تفكرى فى مغادرة هذا البيت أيتها الأم العزيزة ! يجب أن تفكى رباط حقيبتك فى الحال ! وإنك لتستطيعين أن تنتقلى إلى غرفتنا فهى أحسن غرفة فى البيت . وسيذهب جورج إلى المزرعة ويتولى الإشراف على العمل بنفسه ، ألا تذهب يا جورج ؟ والآن يجب أن تكلى إليه كل شىء

ولكننى ابتعدت عن روث وقلت فى فتور :

— لا ، وشكراً لك فإن « كن » و « آن » فى انتظارى وسأذهب إليهما ، فالمزرعة مزرعتى والصفيح صفيحى وسأتولى الأمر بنفسى

فبدا الحزن على روث وقالت :

— ولكنك لا تستطيعين أن تذهبي ، بل يجب أن تبقى هنا معنا يا عزيزتي وهذا البيت بيتك . . . ونحن ... نحن محتاجون لوجودك معنا ...

فابتسمت فى نفسي . . فصحيح أن روث محتاجة الآن إلى وجودى معها ، فقد أصبحت شيخة غنية بعد أن كنت عجوزاً مفلسة . هذه هى أخلاق روث

كذلك كان أبنائي الآخرون على شاكلة جورج وروث ، فلم يكد توم وآلان يسمعان الخبر حتى حضرا لزيارتى ، وقد حملا دعوتين ملحتين من زوجتيهما الماهرتين ترجوان فيهما أن أعيش معهما وكذلك أرسلت لى جين تلغرافاً تسألنى فيه أن أذهب فى الحال إلى لندن ، ويظهر أن وجودى قد أصبح خفيفاً عليها فلن يقلق راحتها فى شىء

وجاءنى أيضاً تلغراف من هارى والينور يؤكدان فيه أن الوقت مناسب جداً لعودتى إليهما ، فابتسمت مرة أخرى ابتسامتى الخفيفة . وقلت فى نفسى :

— إنهم جميعاً يفكرون فى أننى سأموت بعد قليل ، ويتطلعون إلى الثروة التى سأتركها .

كان هذا شأنهم جميعاً ما عدا « آن » و« كن » فهما اللذان احتاجا إلىّ عند ما لم أكن إلا جدة . لم أزد على أن كنت شيخة ضئيلة الجسم متواضعة حنونا أحببتهما من كل قلبى .

فالآن سأذهب إليهما ، وستكون الثروة التى يدرها علىّ متجر الصفيح ثروتهما بالغاً ما بلغ مقدارها. لقد كان الله رحيماً كريما يواسى القلوب الكليمة بأسلوبه الحكيم ، لقد أفاض تعالى نعمته على عباده الحائرين صغاراً وشيوخاً ... نعم لقد كان الله كريماً رحيما . . .

عبد الحميد حمدى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الكاتب

أبى العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي فى طرفته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة :

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً